لعن الله من يفعلها مرة أخرى

كان أكثر ما يُقلق لاظ في تلك الفترة، هو كيف سيستطيع سيده، عزيز مصر كما يحب أن يسميه، أن يوازن بين أعباء الحكم المعقدة، وبين الالتزام بوعوده لزعماء الشعب وأهمها العدل؟ هو كما ذكرنا من قبل لا يمكنه معرفة الخطوة القادمة التي سيُقدم عليها سيده، فلاظ بك لا يرى سوى جنود يحتاجون للمال، ومماليك متربصون، وزعماء للشعب يراقبون، وقناصل دول في خبث يتابعون، ولا يوجد والٍ كي يجبره محمد علي على فرض ضرائب جديدة كما كان يفعل كل مرة، فكيف ستكون قواعد اللعبة إذن؟ وهو لا يعرف أن الباشا سوف يضع هؤلاء الزعماء في صدارة المشهد، وسيقومون هم بالتفكير نيابة عنه في مهمات الأمور، ألم يأتوا به للحكم؟ فليقدموا الحلول إذن، وإلا سيرفض الاستمرار كما أكد من قبل لهم على رفضه لهذا المنصب. وبقليل من التأمل لسلوكيات وقرارات الباشا، أيقن لاظ أن سيده سيضع زعماء الشعب مكان الوالي أمام الشعب، فقد كان يعتمد عليهم في كل أمور الحكم، ويدفعهم لاتخاذ القرارات بدلًا عنه.

ففي أحد اجتماعاته بهم قال:

– إن العسكر الدلاة والأرناؤوط باقٍ لهم ثلاثة آلاف كيس، ولا نعرف لتحصيلها طريقة، فانظروا في ذلك وكيف يكون العمل؟ ولم يبق إلا هذه النوبة.

فقال الشيخ الشرقاوي:

– أما آن الوقت لرحيل هؤلاء العسكر عن البلاد، فقد كثرت مساوئهم وكثر اعتداؤهم على الناس!

– إذا أخذ العسكر رواتبهم سيسافرون إلى بلادهم، ولن يبقى منهم إلا من كنا في حاجة إليه، ومن يتولون المناصب من ضباطهم..

كان لاظ بك يتابع حديث الباشا مع الزعماء باهتمام ولا يشترك فيه كعادته، ولاحظ أن مبلغ عناية الباشا هو اكتساب رضاهم، وإقناعهم أنه في حاجة لفرض ضرائب جديدة، بعد إذنهم بالطبع، لدفع رواتب الجنود، وأن هذه آخر مرة يلجأ فيها لزيادة الضرائب، وكما توقع لاظ، اقتنع العلماء بكلام سيده، واستقر الرأي بعد المشاورة على أن يستولي محمد علي، في ذلك العام، على ثلث الفائض من الحصص والالتزام، أي على ثلث إيراد الملتزمين الذين يجمعون الإيراد من كافة الفلاحين بجميع البلاد، لأن ما يسمونه

الفائض هو صافي دخلهم، وكان الملتزمون يؤلفون إلى ذلك العهد طبقة كبيرة من الملاك، ولكن السيد عمر مكرم اعترض في نهاية المناقشة وقال:

- إن هذا أشبه بالمصادرة، وسيتبرمون من هذه الإتاوة بالتأكيد!
- سيتم ذلك هذا العام فقط، ولن يتكرر كل عام.
- وما الذي يضمن ذلك؟
- سنُثبت في الفرمان أن هذا الأمر لن يتكرر مرة أخرى
- ويجب أن نضيف (لعن الله من يفعلها مرة أخرى)

وانتهى الاجتماع باقتناع المشايخ زعماء الشعب بفرض ضريبة جديدة، وانفرجت الأزمة وأخذ لاظ بك يتأمل ملامح وجه محمد علي باشا وهو يفكر بعمق، وتمنى لو عرف فيمَ يفكر الباشا في هذه اللحظة، وفي الواقع كان الباشا يفكر في أنه سيلغي تماما يومًا ما نظام الالتزام المعمول به من العصر العثماني، وسيصبح هو وحده المالك الوحيد لجميع الأراضي الزراعية في مصر، ولكن أهم ما لاحظه لاظ بك في هذا اللقاء، هو مكانة السيد عمر مكرم ومدى قوة شخصيته، فقد عظم نفوذه في تلك الفترة إلى ما لم يسبق له نظير من قبل، وكان هذا وضعًا طبيعيًّا؛ فهو الذي أجلس محمد علي على عرش مصر، وكان في السنوات الأولى من حكمه أحد أركان ذلك العرش.

ولقد بلغ من مكانته أن محمد علي باشا لما اعتزم أن يجرد جيشًا لمحاربة محمد بك الألفي في الصعيد (أبريل سنة ١٨٠٦)، عرض عليه أن يستخلفه، فينوب عنه ويكون قائِمقامًا مدة غيبته، مما أدهش لاظ، أما ما زاد من دهشته أكثر، فهو امتناع السيد عمر مكرم وعدم قبوله طلب محمد علي، وقد سجل الجبرتي هذا الموقف للسيد عمر مكرم في كتابه، وذكر أن السيد عمر قال للمقربين منه:

- إنما هي إيهامات لا أصل لها..

ويبدو أن الامتناع كان راجعًا إلى أنه شعر أن العرض لم يكن إلا ضربًا من ضروب المجاملة والتكريم، أو لأنه كان يتورّع عن مناصب السلطة، ويخشى أن يتهمه حُسّاده –وكانوا كثيرين– أنه يسعى إلى الجاه، ولا يعطي إلا ليأخذ، فأراد أن يجعل جهاده في سبيل الله. والحقيقة أن الذي لا يعرفه لاظ بك، هو أن السيد عمر لم يكن في حاجة إلى أن يكون قائمقاماً ليعظم مركزه، فقد كان له في نفوس الشعب أكبر منزلة وأعظم مكانة، فكان لاظ بك يتعجب عندما يراه في الاجتماعات والحفلات العامة، يتقدم المدعوين فيخلون له صدر المجالس طواعية واختيارًا، فيكون بجانب محمد علي كتفًا لكتفٍ، وحسبك أن تقرأ بعض ما ذكره الجبرتي عنه في مناسبات مختلفة؛ لتعرف إلى أي حد بلغ نفوذه ومكانته.

قال الجبرتي: "ارتفع شأن السيد عمر، وزاد أمره بمباشرة الوقائع وولاية محمد علي باشا، وصار بيده الحل والعقد، والأمر والنهي، والمرجع في الأمور الكلية والجزئية."، وقال في موضع آخر: "ولما وقع ما وقع في ولاية محمد علي باشا، وانفرد السيد عمر أفندي في الرياسة، صارت بيده مقاليد الأمور.". ولا نزاع أن الزعامة الشعبية قد اكتسبت نفوذًا معنويًّا كبيرًا لمكانة السيد عمر مكرم وشخصيته ومهابته، فهو بحكم رآسته لهذه الزعامة، كان يُسبغ عليها من شخصيته الكبيرة، ما يجعلها نافذة الكلمة محترمة المقام.